بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحرب والسلم في الإسلام

الدكتور هشام نشابة*

مقدّمة

لعلّ من أكثر الأمور التي تؤثّر سلبًا في علاقات المسلمين بالعالم تصويرُهم اليوم، في وسائل الإعلام المختلفة، بأنّهم دعاة عنف وحرب. وبالتالي تصوير الإسلام بأنّه دينٌ يدعو إلى العنف والاقتتال.

وممّا لا ريب فيه أنّ أجواء الأزمات والتوتّر والعنف التي تشهدُها المجتمعات الإسلاميّة في يومنا هذا، تساعد على ترويج هذه الصورة. ففي البلاد العربيّة تكاد لا توجدُ دولةٌ إلّا وهي على خلاف، يصل إلى حدّ العنف السافر أحيانًا، مع دولة عربيّة أخرى. كما تشكو بعض الدول العربيّة العنف الأهليّ الدامي. ويتبادر إلى الذهن حالُ المغرب والبوليساريو، والجزائر وأزمتها الداخليّة المزمنة، وليبيا والعالمُ الذي يفرض عليها الحصار، والسودانُ وجنوبُه، والصومالُ داخليًّا ومع جيرانه، والكويتُ والعراق، والإماراتُ وإيران، والسعوديّةُ واليمن والإمارات، ولبنانُ وسوريا من جهة، وإسرائيلُ من جهة أخرى. ناهيك عن قضيّة فلسطين، كبرى قضايا العرب، وأكثرُها تحدّيًا للسلم العالميّ. ونحمد الله

(*) رئيس المعهد العالي للدراسات الإسلاميّة التابع لجمعيّة المقاصد الخيريّة الإسلاميّة، بيروت. نائب رئيس منظّمة الأورنشكو.

أنّ لبنانَ خرج من دوّامة العنف التي عاشها مسيحيّوه ومسلموه، خمسَ عشرةَ سنة، بعد العام ١٩٧٥.

فإذا خرجتَ من نطاق العالم العربيّ فتكاد لا ترى دولةً إسلاميّة لا تواجه خطرًا يتهدّد السلم والأمن والاستقرار فيها: فإيران يهدّدها الغرب ويقاطعها، والهند وباكستان في خلاف مزمن على كشمير، وأفغانستان مسرح صراع مستمرّ منذ سنوات بين القوى الكبرى للسيطرة عليها، ثمّ بين أحزابها وفئاتها. وأخيرًا، أندونيسيا والدعوات الانفصاليّة فيها، والفيليبّين والصراع بين الجنوب المسلم والشمال المسيحيّ، ناهيك عن قضيّة الأكراد مع تركيا، وقضيّة مسلمي يوغوسلافيا مع الصرب... كلّها أجواءٌ متأزّمة تهدّد بالانفجار، بل إنّها تنفجر تارة وتهدأ تارة أخرى، كما في تشيشينيا وأوزبكستان وتركمانستان.

وثمّة أزمات كامنة لا ندري متى تنفجر بين تركيا وسوريا، وبين العراق وجيرانه...

بل إنّ فرنسا متخوّفةٌ من المسلمين المقيمين فيها وهم أربعةُ ملايين، وألمانيا متخوّفةٌ من مسلميها وهم يُقدَّرون بمليون، وكذلك إنكلترا والمسلمون فيها يُقدَّرون بمليونين، وحتّى الولايات المتّحدة الأميركيّة تخشى من المسلمين السود وقوّتهم المتزايدة، وهم يُقدَّرون بأربعة ملايين أو خمسة.

صورة العالم الإسلاميّ القاتمة هذه، أو قل، صورة المسلمين في العالم، تطرح قضيّةَ الحرب والسلم، وموقف الإسلام من هذه القضيّة، بشكل حادّ. والناسُ، كلُّ الناس، يفضّلون السلم والاستقرار على الأزمات والحروب، ويتوقون إلى الرخاء والعيش الهنيء، ويحبّون الحياة ويكرهون الموت.

فلماذا كلّ هذه الحروب في البلاد الإسلاميّة؟ وهل المسؤول عنها هو الإسلام، دينًا أو عقيدةً؟ أم إنّ هذه الحروب والأزمات والفتن في أساسها هي نتيجة العوامل الاقتصاديّة التي ظهرت بعد الحربين العالميّتين الكبريين اللتين شهدهما العالم في القرن العشرين، ولم يكن للعالم

الإسلاميّ يد فيهما، بل كان من ضحايا هاتين الحربين؟ أم إنّ الحروب والأزمات هي من نتائج «العولمة» وقادتها؟ أم هي مصالح الدول الكبرى التي تواجهها الدول الصغرى بالمقاومة اليائسة تارةً، والانصياع للواقع تارة أخرى؟ أم هي تجارة الأسلحة التي لا تزدهر إلّا باندلاع الحروب؟ أم هي مقتضيات الاقتصاد العالميّ الجديد؟ كلُّها أسئلة تُطرح ولكلّ منّا جواب عنها وتحليل. غير أنّ الذي لا خلاف عليه، في اعتقادي، هو أنّ تحميل الإسلام والمسلمين مسؤوليّة هذا الوضع العالميّ، فيه إفراطٌ في تبسيط الأمور، وهو أقرب إلى الدعاية المغرضة، أو هو ضربٌ من ضروب التنصّل من المسؤوليّة، لرميها على مَن نريده أن يكون «كبش المحرقة». والإسلام «كبش سمين» - نوعًا - باعتباره عقيدة متكاملة ذات حضارة وتاريخ عريق وغنيّ - وكمًّا - باعتبار أنّ أتباعَه يزيدون عن المليار والنصف من البشر. وأهمّ من هذا الكمّ الهائل، إنّهم، أي المسلمين، منتشرون في جميع أصقاع العالم، ويتميّزون بشعور بالانتماء إلى أمّةٍ واحدةٍ، كما لا يشعر أتباع أيّ دين آخر.

إنّني لا أريد في هذا المقام أن أوغلَ في تحليل عوامل الواقع العالميّ المعاصر أو العالم الإسلاميّ المعاصر السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، فليس هذا هدف المحاضرة من جهة، ولستُ خيرَ مَن يتناول هذا الموضوع أصلًا.

ينحصر هدفي بعد هذه المقدّمة على أن أتحدّث عن الإسلام الدين، وعن موقفه من قضيّة الحرب والسلم.

* * *

حالةُ الحرب وحالةُ السلم واقعان إنسانيّان، ولذلك عالجهما الإسلامُ بعمق. فالإسلام لا يتغاضى عن هذا الواقع لأنّه دينٌ مثاليٌّ وواقعيٌّ في آنٍ معًا. وإنّ واقع الحرب لا يرضاه الإسلام في المجتمعات ولا يحبّذه. فالإسلام يحبُّ أن تتعارفَ المجتمعات وتتعاونَ على البرّ والتقوى، لا أن تتعاون على الإثم والعدوان. ولكنّ الإنسان خطّاءٌ - كثير الأخطاء - وممّا يؤخذ عليه منذ خلقه الله، عزّ وجلّ، أنّه سفّاكٌ للدماء.

وفطنة الله مع ملائكته بشأن خلق الإنسان معروفةٌ وموضحةٌ لطبيعة الإنسان، ويقول تعالى في القرآن الكريم: ﴿إذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعلٌ في الأرض خليفةً، قالوا أتجعلُ فيها مَن يُفسدُ فيها ويسفكُ الدماء (البقرة ٣٠)، فقال لهم إنّي أعلمُ ما لا تعلمون﴾. أي إنّ الله سبحانه وتعالى جعل هذا السرَّ إلى الاقتتال عند الإنسان لسببٍ هو وَحْدَه يعرفُه. فللّه في خلْقِه شؤون.

وأمّا كونُ الإسلامِ دينَ السلم والسلام فدليلُه في الآيات البيّنات التالية:

﴿يا أيّها الذين آمنوا ادخلوا في السِّلم كافّة﴾ (٢/٢٠٨).

﴿والله يدعو إلى دار السلام﴾ (١٠/٢٥).

ثمّ إنّ «السلام» صفةٌ من صفات الجنّة حيثُ تجتمعُ كلُّ الفضائل فيي «دار السلام» (٦/١٢٧) والتحيّةُ فيها سلامٌ (أنظر ١٠/١٠) و«السلام» صفةٌ من صفات الله عزَّ وجلّ: هو اللهُ... المَلِكُ القدّوسُ السلام... (٥٩/٢٣). وخطاب المؤمنينَ في ما بينَهم هو السلامُ ﴿وإذا جاءكَ الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلامٌ عليكم﴾ (٦/٥٤)، ذلكَ أنّ السلام هو صفةُ المؤمن الذي يجب أن يتخلّقَ بأخلاق الله عزَّ وجلّ. فقد جاء في القرآن الكريم: ﴿ولا تقولوا لمَن ألقى إليكُم السلامَ لستَ مؤمناً﴾ (٤/٩٤). والمسلمُ الحقُّ هو الذي يواجه الناس بالسِّلم والسلام حتّى ولو كانوا جاهلين. يقول الله تعالى: ﴿وإذا خاطَبَهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ (٢٥/٦٣).

إنّ حالةَ السلم والسلام في الإسلام هي الأصلُ وحالُ العداوةِ والاقتتالِ هي الحالةُ الشاذّةُ التي تتطلّبُ المعالجة. والعداوةُ تفترضُ وجودَ معتدٍ ومعتدًى عليه. والمعتدي هو العدوّ. والعداوةُ تنتهي عندما يتوقّف الاعتداء. لذلك يمكننا القول إنّ ليس هناك عداوةٌ «مطلقةٌ» أو دائمةٌ إلّا في حالتين: حالةُ العداوةِ للشيطان وحالةُ العداوةِ للكافرين.

فالشيطانُ رمزُ الشرّ: ﴿إنّ الشيطان لكم عدوٌّ فاتّخذوه عدوًّا﴾ (٣٥/ ٦)، ﴿ولا تعبدوا الشيطانَ إنّه لكم عدوٌّ مبين﴾ (٣٦/ ٦٠). هذه عداوةٌ مطلقةٌ دائمةٌ ثابتة. ذلك أنّ الشيطان هو الذي يوقعُ العداوةَ بين الناس: ﴿إنّما يريدُ الشيطانُ أن يوقعَ بينكم العداوةَ والبغضاء﴾ (٥/ ٩١).

والعدوّ المطلق، الدائم والثابت، هو عدوّ الله أي هو الذي يكفرُ بدين الله. يقول القرآن الكريم: ﴿مَن كانَ عدوًّا لله وملائكتِهِ ورسُلِهِ وجبريلَ وميكالَ فإنّ الله عدوٌّ للكافرين﴾ (٢/ ٩٨)، ﴿إنّ الكافرين كانوا لكم عدوًّا مبينًا﴾ (٤/ ١٠١). [وقد سألني أحدُ الحاضرين في هذه المحاضراتِ ذاتَ يوم: هل النصارى كفّارٌ في نظر الإسلام؟ فقلتُ له، وأنا أردّد اليوم ما قلته يومذاك: كلّا، ليس النصارى كفّارًا في نظر الإسلام، بل النصارى واليهودُ «أهلُ كتاب» بنصّ في القرآن الكريم، ولو أراد الله أو رسوله أن يسمّيَهم كفّارًا لفعل. ولكنّهم ليسوا كذلك، بل معاذ الله أن يكونوا كذلك وحاشاهم هذا الوصف، وهم أتباعُ دين إبراهيمَ وأتباعُ عيسى، عليه السلام].

ولا أخفيكم عدَم ارتياحي إلى ترجمة «عدوّ» بكلمة Ennemi الفرنسيّة، لأنّ كلمة Agresseur في نظري هي أقربُ إلى ترجمةِ كلمةِ «عدوّ».

إنّ علاقةَ الناس بعضهم ببعض السلميّة والمسالمة هذه هي الأصل في العلاقات الإنسانيّة. وقد تَفسدُ هذه العلاقاتُ ويكون هناك اعتداءٌ - أي ظلمٌ وبغيٌ - من فئة على فئة أخرى. في هذه الحالة يدعو الإسلامُ إلى الردّ على المعتدي.

يقول القرآن الكريم: ﴿وقاتِلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا، إنّ اللهَ لا يحبُّ المعتدين، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرِجوهم من حيث أخرجوكم والفتنةُ أشدُّ من القتل، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتّى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاءُ الكافرين. فإن انتهوا فإنّ الله غفورٌ رحيم ۞ وقاتلوهم حتّى لا تكونَ فتنةٌ ويكونَ الدينُ لله،

فإن انتهوا فلا عدوانَ إلّا على الظالمين... فمَن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا اللهَ واعلموا أنّ الله مع المتّقين * وأنفِقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلُكَةِ وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين﴾ (البقرة/ ١٩٠-١٩٥).

وتلاحظون في الآيات الكريمة هذه كيف يمتزجُ الأمرُ بالقتال بالاقتال، بالتقوى والرحمةِ والإحسان. ذلك أنّ العداوةَ حالةٌ مؤقّتةٌ يجب أن تنتهيَ بإحقاق الحقّ ليسودَ الوفاقُ والأمانُ بين الناس. يقول الله تعالى: ﴿إدفعْ بالتي هي أحسنُ فإذا الذي بينَكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنّه وليٌّ حميم﴾ (٤١/ ٣٤).

* * *

يبقى الحديث عن «الجهاد». والجهادُ ركنٌ من أركانِ الدين. إذ اعتبرَهُ الفقهاءُ الركنَ السادسَ للدين بعدَ الشهادتَيْن والصلاةِ والزكاةِ وصومِ رمضان والحجّ.

و«الجهاد» لغةً هو بذلُ الجهدِ. وهو في القرآن الكريم توجيهُ الجهدِ إلى خدمةِ الدينِ والدفاعِ عنه وإعلاءِ كلمةِ الحقّ والقضاء على الباطل. إنّه الجهادُ في سبيل الله.

يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالِهم وأنفسِهم في سبيل الله والذين آوَوْا ونَصَروا، أولئك بعضُهم أولياءُ بعض...﴾ (٨/ ٧٢).

والجهادُ في القرآن الكريم نوعان جهادٌ بالنفس وجهادٌ بالمال.

والجهادُ موجّهٌ بأحكام القرآن الكريم إلى «الكفّارِ» والمنافقين إسوةً بما أمر اللهُ به نبيّه (صلعم).

أمّا في الحديث النبويّ، فالجهادُ أيضًا جهادان: الجهادُ بالنفس والمال، أي بذلهما، وجهاد النفس أي مجاهدتُها لمنعها عن الإثم والذنوب. ومجاهدة النفس هو «الجهادُ الأكبرُ»، حسب ما جاء في

الحديث الشريف.

وقد نتج من ركن الجهاد في الإسلام قيامُ نظريّاتٍ إسلاميّةٍ في العلاقات الدوليّة تحدّثَ عنها كبارُ علماءِ المسلمين وأصحابُ المذاهب وفي مقدّمتهم الإمامُ الشافعيّ والإمامُ أبي حنيفة والماورديّ. وقد نتج من هذه النظريّات تقسيمُ العالم إلى: «دار الإسلام» و«دار الحرب» و«دار الصلح»، أو «دار العهد». وثمّة اختلافٌ بين الفقهاء بشأن تعريف هذه «الديار». وأحسب أنّ هذا الاختلاف ناتجٌ من الأوضاع الدوليّة التي رافقتْ ظهورَ النظرياتِ الإسلاميّة هذه في العلاقات الدوليّة. غير أنّه لا خلافَ في تعريف «دار الإسلام» بأنّها البلادُ التي تُطبَّقُ فيها أحكامُ الإسلام. أمّا «دار الحرب» فهي البلادُ التي يُمنعُ فيها المسلمون من ممارسة شعائرِهم الدينيّة. وأمّا «دارُ الصلح» أو «دارُ العهد» فهي البلادُ التي تقوم بينها وبين الدولةِ الإسلاميّةِ مواثيقُ ومعاهداتٌ تنظّمُ علاقةَ هذه بتلك. والرأيُ السائدُ بين الفقهاء هو أنّ كلَّ بلد يستطيع المسلمُ أن يُمارسَ فيه شعائرَ دينِه بحرّيّةٍ فهو «دار صلح» ولا يمكنُ أن يكونَ «دار حرب».

صحيحٌ أنّ بعضَ المتطرّفين من المسلمين توسّعوا في تعريف «دار الحرب» لتشمَلَ كلَّ الديارِ التي لا يسود فيها الإسلام. غير أنّ هذا الرأيَ ليسَ مقبولًا عند الفقهاء عمومًا ولا عند عامّةِ المسلمين، لا في هذا العصرِ ولا في العصورِ الغابرةِ. وتبقى النظريّةُ الإسلاميّةُ في العلاقات الدوليّة نظريّةً ذاتَ جوانبَ وأبعادٍ وأعماقٍ، وتشكّل فصلًا مهمًّا في العلوم السياسيّة وأصولِ الحكم لا يجوز أن تؤخذ بخفّةٍ وتسرّعٍ، ليُقال بأنّ الإسلامَ قسّم العالَم إلى قسمَيْن: «دار الإسلام» و«دار الحرب». فهذا قول غيرُ علميّ وغيرُ صحيح وفيه تجنٍّ على الإسلام والمسلمين.

* * *

أخيرًا، لا بدّ في معرض الحديث عن الحرب والسلم من الحديث عن «العنف» و«الإرهاب» اللذين لا يقلّان فتكًا بالمجتمعات الحديثة عن الحرب. فما موقفُ الإسلامِ من العنف والإرهابِ في ضوء ما قدّمتُ من

موقفه من السلم والقتال.

هنا لا بدّ من كلمةٍ موجزةٍ عن مفهوم «العنف». إنّ «العنف» الذي يستهدفُ الأبرياءَ لا يمكنُ أن يقرّه أيُّ دينٍ سماويّ. ولكن، ماذا نقولُ في الظلم؟ أليس الظلمُ شكلًا من أشكال العنف؟ وهل العنفُ في مقاومة الظلم عنفًا مستهجنًا شرعًا؟ أليس الظلمُ من نوع العدوانِ؟ عدوانٌ على الحقّ قد يستدعي المقاومةَ العنيفةَ؟ إنّ موقف الإسلام يؤيّدُ العنفَ في مقاومةِ الظلمِ والعدوانِ، وتلقى هذه المقاومةُ تأييدًا من المراجع الإسلاميّة في الحاضر كما في الماضي.

* * *

غير أنّ ثمّةَ واقعًا مؤلمًا يلفُّ العالمَ الإسلاميّ في يومنا هذا، هو واقعُ «العنفُ العبثيّ» أو «الإرهاب التخريبيّ». كذلك العنفُ المستشري في الجزائر. ولا أعلمُ أنّ هذا النوعَ من العنف والإرهاب يلقى تأييدًا من أيّ مرجع دينيّ ذي شأن، بل إنّ هناك إجماعًا بإدانة هذا النمط من العنف. خاصّة وأنّه عنفٌ أعمى لا يفرّقُ بين الظالم والبريء ويَضيعُ فيه الفرقُ بين الحقّ والباطلِ. إنّ هذا النمطَ من العنفِ لا يقرُّهُ الإسلامُ بأيّ شكلٍ من الأشكال لأنّه نوعٌ من الإجرام. وقد صدَرَتْ فتاوى عديدةٌ تدينُهُ وتدعو إلى محاكمةِ مرتكبيهِ محاكمةَ المجرمين.

غيرَ أنّ الأعمالَ التي تسمّيها إسرائيلُ «تخريبيّة» فللإسلام والمسلمين فيها رأيٌ آخر، وغالبيّةُ الفتاوى تقرُّ هذه الأعمالَ باعتبارِها مقاومةً شرعيّةً، إذ إنّ المجتمع الإسرائيليّ كلّه مجتمعٌ عدوانيّ ومجنّدٌ للحرب. أمّا الأطفالُ والشيوخُ والمرضى فإنّ المقاومةَ لا تستهدفُهُم، فإن أصابَتْهُم أذًى خطأً فإنّ لهم حقوقًا واجبةَ الأداء.

* * *

وبعد، فأرجو أن أكونَ قد أعطيتُكُم فكرةً موجزةً عن مختلفِ الآراءِ حولَ الحربِ والسلمِ في الإسلام، داعيًا اللهَ أن يسدّدَ خطانا جميعًا على طريق المحبّة والسلام ولما فيه خيرُ الناسِ كافّةً.